ملاحظات

حول علاقة الإعلام بالأدب

-١-

هل هناك تقصير إعلامي في تقديم الأدب؟!

إن طرح مثل هذا السؤال هو طرح يقوم على افتراض مؤداه: أن إحدى المهام الرئيسة للإعلام- مكتوباً، أم مرئياً، أم مسموعاً- هي مهمة تقديم الأدب تقديماً كافياً وجامعاً، عبر تقديم نصوصه الأكثر تعبيراً عن تياراته واتجاهاته ومستجداته، سواء بالشكل المباشر الذي هو تقديم النصوص ذاتها.. أم بالشكل غير المباشر، أي بتقديم النقد الذي يتناول بالمراجعة، والدرس، والتحليل، والتقويم، أبرز تلك النصوص المنشورة في الكتب والمجلات والدوريات والصفحات المختصة في الصحف.

غير أن مقاربة الطبيعة الحقيقية للإعلام: من حيث أصلٌ منشئه، ومن حيث وظائفه الإجمالية في عالم اليوم تبين لنا أن هذا الافتراض لا يقوم على أساس قوي، هذا إن لم نَقل إنه افتراض غير دقيق.

وببساطة، إن الطبيعة الحقيقية للإعلام- وهي طبيعة تتحدد بوظائفه، بقدر ما تتحدد الوظائف بها- هي طبيعة ترتبط إجمالاً بالسوق، سواء في التكون أم في السيرورة أم في المآلات الراهنة. غير أنه يجب علينا إيضاح ما نعنيه بهذا القول هنا،

وبالقدر غير المخلّ من الإيجاز.

لقد شكلت الثورة الصناعية الأولى التي تم إنجازها في أوربا، بحدود منتصف القرن التاسع عشر، مفهوم السوق بمعناها الحديث وبفعاليتها التي ما لبثت أن ملكت قوة استقطابية كبيرة لمناشط الحياة وتوجهاتها، ثم أخذت في التطور السريع حتى أصبحت على ما نراها عليه اليوم. إن السوق لا ترسم مسارات حركة التبادلات الاقتصادية وأوضاعها وعلاقاتها وحسب، بل هي- بناء على ذلك- ترسم مسارات السياسات ومعادلاتها وتوازناتها واتجاهاتها، فهي بالتالي تولّد الأيديولوجيات وتخلق أنماط الفكر المتلائمة مع متطلباتها ومقتضياتها، مثلما تغير في منظومات القيم تغييراً جذرياً، وتعدل- بالقدر ذاته- سيكولوجيات الأفراد والجماعات، أو تخلخل نظم تكون الشخصية الإنسانية وسيروراتها، وتتدخل في إعادة بنائها بما يتوافق مع تلك المتطلبات والمقتضيات.

وهذا كله يقودنا إلى حقيقة أن السوق تتدخل- عبر فعاليتها في التغيير المستمر لكيفيات الوجود البشري ومعناه، وأهدافه المعلنة والمضمرة- تدخلاً قد لا يبدو منظوراً في إنتاج الأدب ونقده، إنما- رغم ذلك- يجب أن نعترف بأن الإبداع الأدبي والفني يظل، في مصدره ومرجعيته، على مسافة كبيرة نسبياً من اشتراطات السوق وفواعلها وأهدافها وقيمها إذا كان إبداعاً أصيلاً. وربما أن هناك أسباباً رئيسية لذلك من أبرزها اثنان:

الأول، هو صدور هذا الإبداع الأصيل عن مكابدة انفعالية روحية داخلية في مستوى قد تلامسه تأثيرات السوق لكنها تعجز عن احتوائه، بسبب كونه منطقة من المركب الكلي للذات

المبدعة تقع فيها قواعد وحدود ما هو جوهري في الكينونة والوجود الفطري الإنساني، وهما كينونة ووجود ينشبكان- مباشرة وضمنياً- مع كينونة ووجود الطبيعة والكون انشباكاً جبلياً فيصدر عن ذلك نظام للقيم الأساسية الثابتة والضامنة لنجوع البقاء الإنساني، ولاستمرار نظم الرؤيات الشمولية المرتبطة به.

والأدب- مهما ادعينا له الأصالة- يظل سطحياً ما لم يحمل في عمق دلالته إملاءات هذه المصدرية بصورة من الصور.

أما ثاني السببين المذكورين، فهو يتلخص في الوظيفة المتحصلة عن ذلك الصدور الأساسي، وهي وظيفة تناقض ما تحاول السوق تثبيته من علاقات وقيم وأفكار متعارضة مع معطيات المعنى الحقيقي للوجود الإنساني في الطبيعة والكون. ولأن السوق مرتبطة- عموماً- بظرف تاريخي معين من التطور الحضاري البشري، أي إنها عرضية وعارضة بهذا المعنى، فإن ما تنتجه من تلك القيم والعلاقات والأفكار هو أيضاً عرضي وسرعان ما يؤول إلى زوال، وإن أنجبت هيمنتها الراهنة بدائل راهنية أخرى لتلك السابقة.

وصحيح أن الثقافة- والإبداع من ضمنها- قد جرى إدخالها بشكل ما كسلعة في عمليات السوق منذ منتصف القرن التاسع عشر، كما يقول الدارسون للحداثة وما بعدها.. وصحيح أن كوكبة هائلة من الأعمال الإبداعية- الغربية وغير الغربية- قد وجدت وظيفتها العليا في الدعاوة غير المباشرة لمتحصلات فعالية السوق، كما برهن إدوار سعيد مثلاً على ذلك في كتابه "الثقافة والامبريالية"، لكن ثقافة وإبداعاً مضادين قد تولدا على

امتداد العالم كله في الوقت ذاته، رغم أن هيمنة الامبريالية القائمة على المزيد من تدعيم فعالية السوق قد فككت ذلك الإبداع المضاد، وغيبته بقدر كبير، وطمست تأثيره إلى درجة تقارب الإلغاء.

ولنلاحظ أن ما يشتهر اليوم من أعمال إبداعية على مستوى العالم، ومن يشتهر من مبدعين، لها ولهم- بشكل عام- ترابط في هذه الدرجة أو تلك، ومن هذا النوع أو ذاك، بحركة السوق الامبريالية ومستجراتها. والسوق تخترع لذلك أساليب كثيرة تأتي الدعاوة الإعلامية على رأس قائمتها.

وحركة السوق الامبريالية، إجمالاً، قد احتاجت منذ البدء- ولا تزال تحتاج- إلى وسائل تخترع أنماطاً من الوعي الزائف القادر على منحها آفاقاً واسعة للفعل، والإعلام- بصورة إجمالية- هو أحد أهم الوسائل لذلك.

وما نريد أن نخلص إليه هو أن الإعلام، بصورة عامة، ذو طبيعة ووظفة متناقضتين مع طبيعة الأدب الأصيل ووظيفته. وهو أي الإعلام- ونحن هنا لا نزال في التشخيص العالمي العام: له وللأدب معاً- يعمل على تفكيك هذا الأدب وتطويقه وتطويعه، أي إلى جعله يتجاهل منطقة مصدريته التي سبق أن أشرنا إليها، ويهتم بأن تتم (لعبته) في المنطقة السطحية وشبه السطحية من مناطق سيكولوجية المبدع والمتلقي، حيث يمكن لفعالية السوق أن تؤثر تأثيرها المناسب لها، ولغايات سادتها وأهدافهم منها.

غير أن هذا التقديم المفصل قليلاً ليس كل شيء، خصوصاً بالنسبة لما نحن بصدد مناقشته هنا.

-٢-

كل إعلام إذاً يهتم بتسويق أفكار أيديولوجية محددة، تعمل على إعادة برمجة شخصية المتلقي وجعلها قابلة- في الوعي واللاوعي- على استهلاك ما ترمي إليه تلك الأفكار الأيديولوجية من معارف وأخبار، كما من سلعٍ وبضائع. وفي عالمنا الراهن هناك مراكز مهيمنة، وهناك أطرافٌ واقعة تحت الهيمنة بمختلف الأشكال والوسائل. وبالطبع تسعى الأطراف للتخلص من هيمنة المراكز التي يمكننا أن ننظر إليها كمركز واحد من حيث الفعالية ونتائجه الحضارية الإجمالية.

وخلاصة دروس النصف الثاني من القرن العشرين، وخصوصاً عقد التسعينيات، تشير إلى حروب معرفية وعلمية وتقنية وأيديولوجية ضارية، هدفها اقتصادي صرف في النهاية. وبشكل أساسي كانت الأطراف المهيمَن عليها بقوة الفعالية الرأسمالية العالمية هي (موضوع) تلك الحروب ضمنياً، ولكن عبر العمل على إسقاط الأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية. والإعلام والدعاوة الأيديولوجية والسياسية كانا- ولا يزالان- أداة تلك الحروب غير المنظورة.

وإذا كان النصف الثاني من القرن العشرين- إضافة إلى السنوات القليلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية من نصفه الأول- قد شهد استقلال دول الأطراف التي كانت مستعمرات سابقة، فإن من البديهي أن تعمد كل من هذه الدول- بتأثيرات مختلفة- إلى إنتاج أيديولوجيا تخص الفئات الحاكمة فيها، وبالتالي: تعمد إلى إنشاء إعلام ذي وظيفة دفاعية في الأساس، ضد الإعلام الذي يستخدمه المركز المهيمِن بصورة ما. وإن شئنا الدقة قلنا: إن وظائف الإعلام في الدول المستقلة هي

وظائف تخدم مصالح مالكيه وتوجهاتهم الأيديولوجية، سواء كانوا أفراداً عاديين أم فئات حاكمة. وبالتأكيد فإن إعلام الدول الطرفية، أو المهيمن عليها من المركز، هو إعلام ضعيف تقنياً ومالياً ومعلومة وانتشاراً، أو بالأحرى هو إعلام ضعيف الأداء إذا ما قيس بالإعلام الذي يصدر عن مركز الهيمنة، أو مراكزها، من سائر الجوانب. وينضاف إلى عوامل الضعف في الإعلام الذي تملكه الحكومات عاملُ الترهل البيروقراطي وما يترتب عليه من تقييدات.

وبناء على ما تقدم كله، يصبح الأدب مادةً غير ذات قيمة هامة للإعلام، ما دام هذا الأدب لا يؤثر بصورة مباشرة في العلاقة بين المادة الإعلامية ومتلقيها، على وجه الإجمال.

وفي إطار ميراث حضاري قام على التأمل في اللغة، وربط بها فعالية منتجيه على اختلاف ميادينها، كالميراث الحضاري العربي، تظل للغة– في بلاغتها وتجلياتها الأدبية– مكانة خاصة في سائر مناشط حياتنا الراهنة. إذ إن ذلك مرتبط بمزاج وقابلية حضاريين متأصلين خلال عشرات القرون. وإذا أخذنا بعين الاعتبار عجزنا العربي، خلال قرن ونصف من اليقظة، عن الوصول إلى الانطلاق في طريق حل المشكلات التي خلقها لنا الغرب الاستعماري، ناهيك عن مجاراته أو اللحاق به تكنولوجياً، ثم نظرنا في ما يخلّفه هذا العجز من عقد الدونية الحضارية، ومن آليات تعويض حيالها، حيث يتزايد اعتزازنا لغوياً بما نسميه (ماضينا المجيد) الذي قام على التعامل مع اللغة كما قلنا... إذا أخذنا ذلك كله بعين الاعتبار أمكننا أن نرى لماذا بدأ الإعلام عند عرب القرن العشرين عموماً مشغولاً باللغة ومهتماً بالأدب بصورة أساسية.

غير أن التطور المتسارع في تغيرات الأوضاع الدولية، وازدياد تمركز الرساميل عبر حركة السوق المتفاقمة مع كل ما يتركه ذلك من آثار حتى على طبيعة التخلف ذاته في سائر البلدان المتخلفة- ونحن منها- كل ذلك قد ساهم في انحسار الاهتمام الإعلامي بالأدب الحقيقي، بقدر ما ساهم صراع الايديولوجيات السائدة إبان الحرب الباردة في تسطيح الفهم العام عندنا للإعلام وللأدب، وفي تبسيط قضاياهما ووظائف كل منهما ومرجعياته.. على حد سواء.

وضمن ذلك السياق، وتحت ضغط رغبتنا في اللحاق الحضاري بالغرب- وفقاً للتسميات الشائعة- كثر المتعلمون من حملة أوراق الشهادات بمختلف درجاتها، وقل المثقفون الحقيقيون. وتبعاً للقاعدة التي تقول: إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق، فإننا قد بتنا نرى اليوم كثرة كثيرة من المتعلمين قد تم توظيف أفرادها برتبة (إعلاميين كبار)، مثلما نرى كثرة كثيرة أخرى منهم قد تم توظيف أفرادها برتبة (كتاب ومبدعين) كبار أيضاً! وهذا الأمر لا ينحصر بقطر عربي دون الآخر، بل هو يشمل أقطار الوطن العربي كله، مع اختلاف في الدرجة لا في طبيعة ما هو حاصل.

وإذا أضفنا إلى ما سبق مسألة البطالة، وتدني مستوى المعيشة للمتعلمين/ الموظفين في كثير من البلدان العربية، واستسهال الكتابة من جهة ووجود من يستسهل نشرها من وسائل الإعلام العربية أو تصنيعها مادة مسموعة أو مرئية من جهة أخرى، فإننا سنصل إلى حقيقة أن الأمر ليس أمر تقصير من الإعلام تجاه الأدب، إبداعاً كان أم تقديماً ونقداً، وإنما الأمر أمر قصورٍ بل تخلف في الإعلام العربي، مثلما هو أمر قصور

وتخلف في إنتاج الإبداع الحقيقي الأصيل وإنتاج النقد المكافئ أو الموازي لذلك الإبداع الذي يوشك أن يصير مفقوداً.

ولعل ظاهرة التقليد، تقليد المتخلف للمتقدم.. في محاولة زائفة لمضاهاته، قد أنتجت ظاهرة التلقين في التعليم العادي والأيديولوجي، مثلما أنتجت ظاهرة التكرار أو استظهار المحفوظات في عملية الكتابة.. والتكرار والاستظهار هنا لا يمكن لهما أن يخلُوَا من التلفيق بتاتاً.. لا بل إن التلفيق يصبح قاعدة أساسية في الكتابة، والكتابة النقدية منها على وجه الخصوص، وذلك عندما يعتمد الناقد على منهج أو مناهج أصبحت فائتة- أو إنها ماتت- في (بلد المنشأ)، كما يقال، من أجل أن ينتج نصاً نقدياً مستهدفاً بذاته ولذاته، حتى وإن ادُّعيَ له أنه يقارب العمل الإبداعي أو يتناوله.

ولنلاحظ مثلاً هذه الحالات التي تشكل مظاهر مستشرية ودالة جداً في عمل كتابنا:

١- نادراً ما يرى المرء نصاً أدبياً إبداعياً أو نقدياً لم تفصل بين عنوانه وبينه (كلمة) مقبوسة من أحد الكتاب المشهورين في العالم، سواء كانت لازمة له أم غير لازمة. وهذا غالباً ما يكون إيهاماً زائفاً بسعة اطلاع الكاتب وأهمية مادته. لكن الحقيقة هي أن هذا الأسلوب مقبوس من تجار البضاعة الرخيصة الذين يضعون على بضاعتهم أوراقاً كاذبة تفصّل في بعض المعلومات الزائفة عن مصدر البضاعة وتركيبها بغية إظهار أنها ذات جودة عالية، رغم رداءتها.

٢- إسباغ الألقاب الفضفاضة على من لا يستحقها، من

نوع: الشاعر الكبير، والروائي العربي الكبير.. وما إلى ذلك في المقالات التي تدعي أنها نقدية، ويتم هذا التلقيب دون أي تمحيص نقدي جاد وموضوعي، بل هو يمنح منحاً لأسباب شخصية غالباً. وتدخل في هذا الباب مسألة إعطاء تسمية: الشاعر، الروائي، المسرحي، كاتب القصة، الكاتب الدرامي، الناقد... لأناس ما كادوا يبدؤون خطوتهم الأولى التي غالباً ما تكون متعثرة. ويقابل ذلك طمس أسماء تتمتع أعمالها بقيمة فنية ومضمونية جيدة، ويتم هذا عن طريق التجاهل الذي تلعب فيه الأسباب الشخصية أيضاً دوراً أساسياً.

٣- ما معنى أن يقرأ المرء مقالات نقدية تطبيقية، أو يستمع إلى محاضرات في ذلك، فإذا بها معبأة بأسماء ومصطلحات أجنبية وأفكار غامضة لكنها مطنطنة.. وإذا به في متاهة من معطيات التعالم لا يضيع فيها سواه وسوى العمل المنقود الذي يظل هامشياً، وأشبه ما يكون بقطعة فلافل محروقة على طرف مائدة تبدو فاخرة لكن محتوياتها كلها من الشمع؟!

٤- ما معنى أن يكتب أكاديمي بحثاً أو محاضرة أو مقالة عن أحد أعلام الفكر أو الأدب في العالم فيضع اسم ذلك (العلَم) عارياً من أي لقب، بينما يضع أمام اسمه هو الحرف (د) أو الحرفين: (أ.د) أي الأستاذ الدكتور وهما موازيان للقب (برفيسور دكتور) الذي لا يمنح في جامعات العالم التي تحترم نفسها إلا لمن قدم إضافة هامة في مجال اختصاصه على كل من سبقه في ذلك المجال؟!

٥- إن السطحية والتبسيط المخليَّنِ في المقالات التي تنشرها الصحف المكتوبة بالعربية، هما صفتان ما عادتا قاصرتين على المبتدئين وأنصاف الكتبة، بل أصبحتا سمة الكتابة الصحفية لأناس يعتبرون لدينا أعلاماً!.. فعرض كتاب مهما بلغت أهميته في إحدى الصحف من قبل أحد هؤلاء الأعلام لا يزيد في شيء عن العرض الذي يقدمه له أحد المبتدئين، فالكل يكتب من (قفا اليد) كما يقال، طلباً للمكافأة لا طلباً لنشر المعلومة الجيدة والمدقَّقة.

ومثل هذه الحالات كثيرة يصعب أن نحصرها هنا.

-٤-

إن ما أردت قوله هو أن الإعلام العربي ليس مقصراً في حق الأدب، بل هو متخلف بطبيعته لأسباب ذكرناها وأخرى فاتتنا أو إنه لا يتسع المقام لذكرها. وتخلف هذا الإعلام ليس هو السبب في عدم احتفائه الكافي بالأدب والنقد خصوصاً، بل لأن وظيفته- أو وظائفه- هي بعيدة جذرياً عن مثل هذا الاحتفاء.

وبالمقابل ليس الإعلام وحده هو المتخلف، بل إن الأدب والنقد هما أيضاً متخلفان تخلفاً مفزعاً.

ولو أحصينا الكمّ الذي يندرج تحت تسمية (الثقافة) في الصحف العربية وحدها، وحسبنا نسبته بالقياس إلى مجموع المادة المنشورة لوجدناها نسبة مقبولة إن لم نقل جيدة. لكن قيم السوق التي تحكم عمل الإعلام عموماً تفرض نفسها على (المفردات) الثقافية المنشورة، وتطوّعها، وتكيّفها مع مقتضياتها.. فتجعلها مسطحة وباهتة، ونادراً ما تكون ذات أهمية

تذكر.

إن التخلف كظاهرة عامة هو تخلف متكامل الجوانب، شـــئنا ذلك أم أبيناه.

والتبعية المعرفية التي ندرجها عادة تحت اسم (مثاقفة) ليست إلا إبرازاً لحقيقة هذا التخلّف المتكامل. وعلينا ألا نتبجح كثيراً لا بالإعلام العربي إن كنا إعلاميين، ولا بالأدب العربي ونقـــده إن كنا أدباء ونقاداً، فذلك لن يجدي كثيراً أو قليلاً في إطار التخلف العربي الشامل وما يترتب عليه من تبعية إجمالية مفروضة بقوة النظام الحضاري السائد.

وكنت أود أن أتطرق إلى إعلامنا المرئي وعلاقته بصـــناعة الأدب المصور، أي بالدراما التي ربما أصبحت (رواية العقـــود القريبة المقبلة). ولكن هذا هو ميدان آخر، ولا يتسع لـــه المقـــام هنا، رغم أنه- كفعالية- ينتمي إلى ظاهرة التخلف العام ذاتهـــا وإلى تجلياتها المختلفة في سائر جوانب حياتنا.

❑❑